الفصل الرابع

المديح الدينى

١ ـ الله جل جلاله

خلق الله الوجود فأحسن خلقه ، وأنعم على البشر فأجزل نعمه ، لذلك قامت الأديان كلها بشكره ومديحه وبيان أياديه ونعمه ؛ فأكثرت الكتب المقدسة من ذكره وبيان معجزاته فى خلقه ، وفى القرآن الكريم كثير من الآيات فى مديحه والاعتراف بجبروته وقوته وخيراته وفضله على المخلوقات جميعاً من حيوان ونبات وجماد . ولذلك سار الشعراء منذ القديم على تقديسه فرأوا فى الطبيعة سرّ جماله وفى تكوين الدنيا جمال عظمته . وبهذا كثر المديح وتنوّع فكان حيناً مديحاً سطحيًّا ، وحيناً مديحاً عميقاً ، وأصبح فى كثير من الأحيان مديحاً صوفيًّا فاتخذ لوناً آخر من ألوان الأدب لا نعرض له فى هذا الكتاب إلاّ لماماً .

وإنما نعرض قبل كل شىء ما كان من مديح دينى خالص ، فنبسط صوراً ونماذج قليلة تلخص هذه الألوان الكثيرة التى كانت منذ فجر الدنيا العربية تصلى للإله وتدعو له ، فلن نستطيع إلى عرضها كلها ، ولكننا نقتصر على شىء منها . فقد قال حسان بن ثابت :

وَأَنْتَ إلٰه الخَلْقِ رَبِّى وَخَالقِى ... بذلك ما عُمِّرتُ فى الناس أَشْهَدُ
تعاليتَ رَبَّ الناس عن قَوْل مَنْ دعا ... سواك إلٰهاً أنت أعلى وأمجدُ
لك الخلق والنعماء والأمر كلّه ... فإياك نستهدى وإياك نَعْبدُ

فأنت ترى أنه اتخذ الألفاظ التى يرددها المؤمنون فى صلواتهم وفى عبادتهم